
توجيهات لفظية ومعنوية في سورة السجدة المكية

إعداد

أ.د. إبتسام بنت بدر الجابري

أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن

جامعة أم القرى

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، أما بعد؛
القرآن الكريم هو كلام الله رب العالمين وصفة من صفاته، وهو المعجزة العظمى، وقد ظهر إعجازه من جوانب كثيرة، ومن أبرزها جانب الإبداع البياني في ألفاظه وتعبيراته، وقد تحدى الله الخلق بالإتيان بحديث مثله ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤) [سورة الطور]، أو بسورة من مثله، ومن جوانب هذا الإعجاز البياني جانب التشابه اللفظي في آياته، ذلك السرّ العظيم من أسرار إعجازه، التي كانت مطعناً لبعض الملحدّين الطاعنين فيه، أو مجالاً لم يتدبر من بعض الغافلين عنه.
ومن هذا الباب كان اختياري للكتابة في هذا الموضوع، لإظهار هذا الجانب البلاغي العظيم، والدعوة للتأمل في آيات الكتاب الكريم، وقد اخترت سورة السجدة لدراسة هذا الموضوع من خلالها، ولقد وجدت فيها العديد من صور التشابه اللفظي رغم قلة عدد آياتها، وهذه السورة تحوي الكثير من الجوانب البلاغية والأدبية وكذا الموضوعات المتنوعة من عقديّة وتعبديّة وخلقية، لذا أثرت التطرق لجميع تلك الجوانب التي تبرز من خلال دراسة السياق القرآني للسورة، ومن خلال ذلك يتبين أثر ذلك في توجيه التشابه اللفظي في آياته.

وقد سلكت في ذلك النهج الآتي:
قسمت السورة إلى تسعة فصول كل فصل يشمل مقطع من السورة، ووضعت لكل مقطع عنوان يبين موضوعه، ثم جعلت تحت كل فصل مباحث على النحو الآتي:

١- المعنى العام للآيات.

٢- الإبداع البياني.

٣- توجيه التشابه اللفظي في الآيات ودرء موهم التعارض فيها.

٤- مباحث موضوعية.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد والبصيرة، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

فضائل السورة:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: ألم تنزل السجدة وهل أتى على الإنسان.^(١)
- عن جابر رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزل وتبارك.^(٢)

سبب النزول

عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وقد أصابنا الحر، ففترق القوم، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني، فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله، أنبأني بعمل يدخلني الجنة، وياعدني من النار. قال: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير كلها". قال: قلت: أجل، يا رسول الله، قال: "الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يبغني وجه الله تعالى"، قال: ثم قرأ هذه الآية ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾^(٣)

- عن أنس بن مالك عن هذه الآية ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العمرة.^(٤)
- نزولها هي مكية، كما رواه ابن الضريس وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، ورواه ابن مردويه عن ابن الزبير.^(٥)
- فالسورة مكية بالاتفاق، سوى ثلاث آيات؛ فإنها مدنية ﴿أَقَمْنَا كَانَ مُؤَمِّتًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَالَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾
- عدد آياتها: تسع وعشرون عند البصريين، وثلاثون عند الباقرين.
- كلماتها: ثلاثمائة وثلاثون.
- حروفها: ألف وخمسةائة وتسع وتسعون.^(٦)

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ٣٤٠/٢ حديث ٨٩١، وأخرجه مسلم كتاب الجمعة باب ما يقرأ في يوم الجمعة ٦٥/٢

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٣٤٠/٣، وأخرجه الترمذي في فضائل القرآن باب ما جاء في فضل سورة الملك ١٥٢/٥ حديث ٢٨٩٢ وأورده الألباني في الأحاديث الصحيحة ٥٨٥.

(٣) أخرجه النسائي في الصوم ١٦٦/٤ وأخرجه الحاكم في المستدرک ٤١٢/٢ وصححه ووافقه الذهبي ومن طريق أبي وائل أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) بتامه وقال حسن صحيح، والنسائي في التفسير (٤١٤) و ابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣) والامام احمد (٢٣١/٥) بتامه. وكنا قال ابن شعبان حسن صحيح في كتاب أسباب النزول للواحدى ٢٩٢، أسباب نزول القرآن الواحدى تحقيق محمد بسيونى زغلول دار الكتب العلمية ١٤١١ ص ٣٦٢ (٤) هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأخرجه ابن جرير ١٠٠/١٢، وقال ابن كثير في تفسيره سند جيد، الصحيح المسند من أسباب النزول ١٨٣ مقبل الوادعي - دار ابن حزم ١٤١٣

(٥) فتح القدير ٣٢٤/٤

(٦) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣٧٣/١، المكتبة العلمية/ بيروت، تحقيق محمد النجار، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي

مقصودها:

محور سورة السجدة هو العقيدة، وإثبات الإلهية والرسالة واليوم الآخر. وقد اشتملت على مواضيع شتى مثل: تنزيل القرآن، إنذار الكفار، خلق السماء والأرض، خلق الخلائق، تخصيص الإنسان من بينهم، تسليط ملك الموت على قبض الأرواح، تعذيب العصاة، ملء جهنم من أهل الإنكار والضلالة، وذكر حال المتقين في جوف الليالي، إخبارهم بما ادخر لهم في العقبى من أنواع الكرامة، الدعوة للإحسان وترك الاستكبار، والتفريق بين الفاسقين والصادقين في الجزاء والثواب في يوم المآب، وتسلية النبي ﷺ بتقرير أحوال الأنبياء الماضيين، وتقرير حجة المنكرين للوحدانية، وأمر الرسول ﷺ بالإعراض عن مكافأة أهل الكفر وأمره بانتظار النصر^(١).

الفصل الأول: قضية الوحي وصدق الرسالة

﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ لا شك فيه أنه من عند الله وليس بشعر ولا سجع ولا هو مما افتراه محمد عليه الصلاة والسلام من عند نفسه، وقد كذب جل ثناؤه بذلك قول الذين قالوا أساطير الأولين، وقول الذين قالوا إن هذا إفك، فقال: ما هو كما تزعمون وتقولون بل هو الحق والصدق من عند الله أنزله إلى نبيه عليه الصلاة والسلام لينذر قوماً أن يحل بهم العذاب على كفرهم به، قوماً ما أتاهم من نذير من قبل ليتبينوا سبيل الحق فيعرفوه ويؤمنوا به. وقد جاءت هذه الآيات على أسلوب بدعي الإحكام إذ أثبت أن الكتاب تنزيل من رب العالمين، وأنه يحق أن لا يرتاب فيه مرتاب، ثم انتقل إلى الإنكار من الذين جزموا بأن النبي عليه السلام مقتر به على الله، ثم رد عليهم بإثبات أنه الحق الكامل من الله، وبين أن ما فيه إنما هو تذكرة لهم وهداية.

الإبداع البياني في الآيات:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [سورة السجدة]، هذه الجملة تحوي أمور من الناحية البيانية :

- ١- افتتاح الكلام بالجملة الاسمية لدلالاتها على الدوام والثبات.
- ٢- المحييء بالمسند إليه معروفاً بالإضافة لإطالته ليحصل بتطويله، ثم تعقيبه بالجملة المعترضة، التشويق إلى معرفة الخبر، وهو قوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ولم تأت: قرآن منزل من رب العالمين أو نحو ذلك.

وإنما عدل عن أسلوب قوله ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [سورة البقرة]، لأن تلك السورة نازلة بين ظهراي المسلمين، ومن يرحى إسلامهم من أهل الكتاب وهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [سورة البقرة]؛ وأما هذه السورة فقد جأته الله بها المشركين الذين لا يؤمنون بالإله الواحد ولا يوقنون بالآخرة.

- ٣- استحضر الجلالة بطريق الإضافة بوصف ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دون الاسم العلم وغيره، من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم الشريعة، وكون كتابها منزلاً للناس كلهم، بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية^(١).
- ٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ [سورة السجدة]، أم هذه تقرير، وقد يستفهم بأم، وقد زعم بعضهم أن معنى ذلك ويقولون، وقال أم بمعنى بل في مثل هذا الموضع^(٢).

توجيه المتشابه اللفظي في الآيات (١-٢):

الم: في القرآن الكريم تسع وعشرون سورة افتتحت بحروف التهجّي منها السبع المعروفة بآل حم أو الحواميم. وقد اختلف المفسرون في المراد بها على أقوال: أسلمها تفويض العلم إلى الله سبحانه وتعالى قال ابن كثير: (قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها، حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين - وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خيثم، واختاره أبو حاتم...^(٣))

وجميع السور المنتحة بالحروف، لا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة.^(٤)

وقد افتتحت ست سور بـ ﴿الم﴾ وهي: [البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة]

- ١- ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [سورة البقرة]
- ٢- ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)﴾ [سورة آل عمران]
- ٣- ﴿الم (١) أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ (٢)﴾ [سورة العنكبوت]
- ٤- ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾ [سورة الروم]
- ٥- ﴿الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [سورة لقمان]
- ٦- ﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [سورة السجدة]

وبالنسبة للسور الست المفتحة بـ ﴿الم﴾ قال الكرمانى: (قوله تعالى: ﴿الم﴾ هذه الآية تتكرر في أوائل ست سور والموجب لذكره أول (البقرة) من القسم وغيره، هو بعينه الموجب لذكره في أوائل السور المبدوءة به)^(٥).

والموجب لذكره في سورة البقرة إقامة الدليل على أن هذا الكتاب هدى، ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، وجمعه الإيمان بالأخرة، فمداره الإيمان بالبعث، الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب، فلذلك سميت بها السورة^(٦).

(١) التحرير ١٤١/٢١-١٤٢

(٢) تفسير الطبري ٥٧/٢١

(٣) تفسير ابن كثير ١٠٩/١

(٤) تفسير ابن كثير ١١٣/١

(٥) البرهان ١١٣

(٦) نظم الدرر ٢٤/١

- إبدال جملة بجملة:

في قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [سورة البقرة]، وقوله: ﴿الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [سورة السجدة]

في سورة البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، في البقرة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هي سورة مدنية والحديث فيها عن أصناف الناس الثلاثة. بينما في السجدة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي مكية والحديث فيها حول إثبات كون القرآن من عند الله تعالى، وكلمة ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه إيماء إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزلاً للناس كلهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية.

توجيه المشابه اللفظي في الآية (٣):

١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [سورة يونس]

٢- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾

[سورة هود]

٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا تَوَّابٌ وَمِمَّا يُجْرَمُونَ (٣٥)﴾ [سورة هود]

٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)﴾ [سورة السجدة]

٥- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ (٨)﴾ [سورة الأحقاف]

- إبدال جملة بجملة:

وأكثرها تشابهاً آيتي هود (١٣) ويونس (٣٨) معاً، وآية الأحقاف (٨) و هود (٣٥) معاً، ثم آية السجدة (٣) وهي تشبههم في بدايتها بحسب ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ثم اختلفت الجملة فيما بعد، ففي جميع السور جاءت الجملة بعدها مصدره بقوله (قل) أي يا محمد، بينما في سورة السجدة جاء قوله (بل) مباشرة غير مسبوق بقل زيادة في توكيد أن القرآن من عند الله وهو مناسب لسياق السورة بأسرها إذ هي في إثبات صدق الكتاب وتقرير لهذه الحقيقة، وأما تفصيل اختيار الجمل فهو كما يلي:

في سورة يونس ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ..﴾ "بسورة" فقيل لهم: إذا كان مفترى كما تزعمون فما المانع لكم عن معارضته فأتوا بسورة ماثلة للقرآن، فالمراد هنا نفي كلام ماثل للقرآن وإقامة الحجة عليهم بعجزهم عن ذلك. وقد روعي فيه الإيجاز لمناسبته.

وفي سورة هود "بعشر سور" فإنه -والله أعلم- لما قيل هنا مفتريات فوسع عليهم ناسبه التوسعة في العدد المطلوب لأن الكلام المفترى أسهل فناسبته التوسعة. أما الوارد في السورة السابقة (يونس) لم يذكر لهم فيها أن يكون مفترى بل السابق من الآية المائة مطلقاً، فإذ لك أصعب وأشق عليهم مع عجزهم في كل حال، فوقع الطلب حيث التضييق بسورة واحدة وحيث التوسعة بعشر سور مناسبته جليلاً واضحة^(١).

آية هود: قال ابن التيم (ليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله - وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل - وإنما المعنى: أنزله مشتقاً على علمه. فنزوله مشتقاً على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق^(١)) قال الغرناطي: (ولما كان ظاهر هاتين الآيتين المائة مطلقاً قيل بعد ذلك: اتنوا بكلام مفترى على سهولة مالا يتقيد بسوى الفصاحة وجاء ذلك من طلبهم بالتدرج، فأولاً بالمائة من غير ذكر: مفترى، ثم قيل لهم: جيئوا بمفترى فلم يبق لهم عذر إلا العناد^(٢)).

آية السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فإن قولهم هذا مفترى إنكار لأن يكون من رب العالمين، أي فالأنسب أن يكون نفي الريب عما أنكروه وهو كونه من رب العالمين، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ فإنه تقرير لما قبله فقد أثبت سبحانه أولاً أنه تنزيله، وأن ذلك لا ريب فيه أي لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله، ثم أضرب سبحانه عن ذلك إلى قوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ لأن ﴿أَمْ﴾ المنقطعة بمعنى بل والهزمة إنكاراً لقولهم وتعجباً منه لظهور عجز بلغائهم عن مثل أقصر سورة منه.^(٣)

و﴿أَمْ﴾ في ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى بل والهزمة، أي بل أيقولون هو مفترى؟ ﴿افْتَرَاهُ﴾ افعله واختلفه. ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب فقال ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء، ثم بين العلة التي كان النزول لأجلها فقال: ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهم العرب وكانوا أمة أمية لم يأتيهم رسول وقيل: قرينش خاصة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ رجاء أن يهتدوا أو كي يهتدوا.^(٤)

آية الأحقاف: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم إن محمداً افتراه، ومعنى الهزمة في أم الإنكار والتعجب كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقتضي منه العجب وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتره على الله ولو قدر عليه دون أمة العرب، لكانت قدرته عليه معجزة، لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة، كانت تصديقاً من الله له، والحكيم لا يصدق الكاذب، فلا يكون مفترياً. والضمير للحق والمراد به الآيات ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيل الفرض عاجلي الله لا محالة بعقوبة الافتراء عليه فلا تقدرين على كفه عن معاجلي، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني فكيف أفتره وأعرض لعقابه؟^(٥)

بعض المباحث الموضوعية:

التأدب مع المصحف:

لا بد من احترام المصحف والتأدب معه وهو أمر مجمع عليه بين المسلمين كما ذكره النووي^(٦). وما يلحظ الآن تهاون الناس في هذا الأمر سواء في طريقة حملهم للمصحف أو وضعهم له أو الكتابة فيه أو تقليب صفحاته. وللمصحف آداب ينبغي التأدب بها؛ منها:

١- تحاشي التصغير في اسمه ورسمه وحجمه، ويُطالب من يكتبه بتحسين خطه وتجميله، وأن يكتبه على ورق يليق بمقامه.

(١) مدارج السالكين ٤٧١/٣

(٢) ملاك التأويل ١٨٥/١

(٣) روح المعاني ١١٧/٢١

(٤) فتح القدير ٣٢٦-٣٢٥/٤

(٥) الكشاف الزمخشري ١٠٠٩

(٦) التبيان في آداب حملة القرآن ١٧٤.

قال الحكيم الترمذي^(١): (ومن حرّمته أن تجلّل تخطيطه إذا خططته. وعن أبي حَكِيمَة: أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمرّ علي - رضي الله عنه - فنظر إلى كتابه فقال له: أجليل فلمك، فأخذت القلم فتقططت - قطعه عرضاً - من طرفه قطعاً، ثم كتبتُ، وعلي قائم ينظر إلى كتابتي؛ فقال: هكذا، توره كما توره الله تعالى)^(٢).
وقال القرطبي معللاً وجوب العناية بكتابة المصحف: (وذلك أشبه بالإجلال والتعظيم)^(٣).

٢- الحذر من إضافة شيء إليه أو كتابته بالأعممية.

٣- الحذر من استنساخه، أو توسده، أو رميه عند وضعه أو مناولته، أو مد الرجلين إليه، أو التروح به، أو استعمال الشمال في تناوله وأخذه، أو تصغير اسمه.

٤- الحذر من وضع شيء فوقه، أو بين أوراقه، أو حمله حال دخول الأماكن الممتنّة، أو تعريضه لأي نوع من أنواع الأقدار، أو تعريضه لمظان امتنانه أو النيل من قدسيته، كأن يُمكن منه الصغار أو المجانين أو الكفار.

القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام رب العالمين، وصفة من صفاته، ومن أراد الهدى والشفاء والنور، والسعادة والفلاح والفوز، اتبع هداة وآمن به، وعمل بما فيه.

وقد بعث الله محمد ﷺ بكتابه الذي هو الهدى، وجعله أحسن الحديث وأحسن القصص، وجعله الصراط المستقيم. والمعتصمون به علماء وحالاً، وتلاوة وسمعاً، باطنياً وظاهراً، هم المسلمون حقاً وهم أهل الله وخاصته.

وليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تأمل القرآن وتدبر معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ هَذَا

الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْبَيِّتِ هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) [سورة الإسراء].

والقرآن بصيرة و تبصرة، وهدى وشفاء، ورحمة بمعنى عام، ومعنى خاص؛ ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين، وهدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين، فهو في نفسه هدى ورحمة، وشفاء وموعظة^(٤).

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

أرسل الله الرسل من أولهم إلى خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل

إليه، وبيان حال المدعويين بعد وصولهم إليه. ولقد بعث محمد ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل، والناس إذ ذاك أحد رجلين:

إما كتابي معتصم بكتاب: إما مبدل أو مبدل منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإما أمي من عربي وعجمي،

مقبل على عبادة ما استحسنه، وطن أنه ينفعه: من نجم أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك.

(١) هو أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي ت/٣٢٠.

(٢) نواذر الأصول في أحاديث الرسول ٣/٢٥٥-٢٥٦.

(٣) التذكار في أفضل الأذكار ١١٧ محمد القرطبي ط ٢٠١٤، تحقيق فواز زمولي، دار الكتاب العربي.

(٤) إغاثة اللفهان ٢/١٦٩.

والناس في جاهلية جهلاء فهدى الله ببركة نبوة محمد ﷺ وما جاء من البينات والهدى هداية جلّت عن وصف الواصفين، حتى حصل لأمتة المؤمنين عموماً، ولأولي العلم منهم خصوصاً، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جمعتهم حكمة سائر الأمم، علماء وعملاً، الخالصة من كل شوب، إلى الحكمة التي بعث بها لتفاوتوا تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما^(١).

والله عزوجل يُحدث في كل وقت آيات دالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر.

ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾ [سورة الفتح]، فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة والبيان والدلالة، وظهوراً بالنصر والغلبة^(٢).

الفصل الثاني: إثبات الألوهية:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

لما كان الركن الأعظم من أركان هدي الكتاب هو إثبات الوجدانية للإله وإبطال الشرك عقب الشناء على الكتاب بإثبات هذا الركن واستدل على ذلك بخلق السموات والأرض واستواءه على العرش وأن لا شفيع ولا ولي دونه. وفرغ على هذا الدليل الإنكار على عدم تدبرهم في ذلك، وإهالهم النظر والتذكر بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ثم ذكر سبحانه تدبيره الأمر وسعة علمه وعظيم قدرته في خلق الإنسان؛ مما يستلزم توحيدته وإفراده بالعبادة والشكر، فعرفهم كمال قدرته ليسمعوا كلامه ويتأملوه ويمتشقوه.

الإبداع البياني في الآيات:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)﴾ [سورة السجدة]

جاء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختص به قطعاً لادبار عقيدة الشرك في الإلهية، وحيء باسم الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر وأنه الانفراد بالربوبية لجميع الخلائق^(٣).

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)﴾ [سورة السجدة]

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٧٥/١

(٢) مدارج السالكين ٤٧٠/٣

(٣) التحرير ١٤١/٢١-١٤٢

جاء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعدما أجري عليه من أوصاف التصرف بخلق الكائنات وتدير أمورها؛ للتنبيه على أن المشار إليه باسم الإشارة حقيق بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الصفات المتقدمة^(١).

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ خبر آخر عن اسم الإشارة أو وصف آخر لـ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ وهو ارتقاء في الاستدلال مشوب بامتنان على الناس أن أحسن خلقهم.

وقوله ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ انتقال من الغيبة إلى الخطاب وفيه التفات إلى المخاطبين من أفراد الناس، وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين.

والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالين إلى ﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لأن ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذون به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل أو كان جعلاً لفائدتهم.

كلمة الأفئدة أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعض منها.

وأفرد السمع لأنه مصدر لا يجمع وتقدم السمع والأبصار على الأفئدة هنا على عكس آية البقرة لأنه روعي هنا ترتيب حصولها في الوجود فإنه يكتسب المسموعات والمبصرات قبل اكتساب العقل^(٢).

توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٤):

- ١- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْجُورَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [سورة الأعراف]
 - ٢- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۗ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [سورة يونس]
 - ٣- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [سورة الفرقان]
 - ٤- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَنْصُرُ فِيهَا ۗ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [سورة الحديد]
 - ٥- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)﴾ [سورة السجدة]
 - ٦- ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ لِيَجْرِيَ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۗ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَاءَ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ (٢)﴾ [سورة الرعد]
- في جميع ما سبق ذكر سبحانه خلقه السماوات والأرض واستواءه على العرش في تقريره سبحانه لتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وإثبات الرسالة والرد على المشركين.
- إبدال جملة بجملة:

(١) التحرير ١٤٩/٢١

(٢) التحرير ٢١٨-٢١٥/٢١

- آية الأعراف: جاءت بعد إعدار الله إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ﷺ، ثم أخبر أنه خلق

السموات والأرض، واستوى على العرش، وله الملك والنصر، والجميع تحت مشيئته وتسخيره سبحانه.

- آية يونس: جاءت بعد إنكار الله لمن تعجب من الكفار من إرسال الرسل من البشر، فأخبر سبحانه أنه رب العالم جميعه، وأنه

خلق السموات والأرض، واستوى على العرش، وأن بيده تدبير الأمر، فأفردوه بالعبادة وحده.

- آية الفرقان: جاءت بعد إخبار الله عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، بلا دليل يقودهم إلى ذلك، ولا حجة تؤدبهم إليه، بل بمجرد الأهواء والآراء الباطلة.

ثم أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض، واستوى على العرش، فهو خالق كل شيء وربّه ومليكه.

- آية الحديد: جاءت بعد ذكر الله أن كل ما في السموات والأرض يسبح له، وأنه هو المالك المتصرف في خلقه.

ثم ذكر سبحانه خلق السموات والأرض واستواءه على العرش، ثم أمر بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل.

- آيات السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)﴾ يتضمن أبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وإن

الله ليس مستوياً على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عليه السلام إليه، ولا عرج

برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عياناً بأبصارهم من فوقهم... قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في أن

الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ

الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۗ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۗ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْرَأُ

(١٠) [سورة فاطر]

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ...﴾ سورة السجدة (٤-٦) قال ابن قيم: (وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين

والمشركين فقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأنه لم يزل

وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازماً لذاته أزلاً وأبداً غير مخلوق، كما هو قول

الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب وشهدت به العقول والفطر^(١).

توجيه موهم التعارض في الآية (٥):

١- ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [سورة السجدة]

٢- ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [سورة المعارج]

٣- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۗ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [سورة الحج]

ذكر أن المراد به هنا: ما ينزل به الملك من السماء ثم يصعد إليها، ويكون السماء هنا عبارة عن حزمة سدرية المنتهى لا من ساء الدنيا.

والمراد بآية الحج إن عذاب المعذب في جهنم يوماً واحداً بقدر عذاب المعذب ألف سنة، لأنه جاء بعد قوله ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ والمراد بآية المعارج: يوم القيامة لما فيه من الأهوال والشدائد.

وقوله ﴿فِي يَوْمٍ﴾ راجع إلى قوله ﴿بِعَذَابٍ وَقَعٍ﴾ أي واقع ليس له دافع في يوم كان مقداره ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعٍ﴾ (١) للكافرين لئیس له دافع (٢) من الله ذي المعارج (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) وقيل المراد به: نزول الملك من سدرة المنتهى وعوده إليها، وإن مقدار ذلك على سير أهل الدنيا (خمسون ألف سنة) (١).

وذكر الإسكافي ثلاثة أوجه:

جواب أول: في سورة المعارج أي: تصعد الملائكة وجبريل عليهم السلام إلى حيث يعطي الله تعالى فيه الثواب أهل طاعته، ويحل فيه العقاب بأهل معصيته، وإن ذلك في يوم هو يوم القيامة، ويفعل الله تعالى فيه من محاسبة عباده وتبليغ كل منهم حقه ما لا يكون مثله في الدنيا إلا في خمسين ألف سنة.

جواب ثان: وهو أنه يجوز أن يكون يوم القيامة يوماً بلا آخر، وفيه أوقات مختلفة طولاً وقصراً، كما في أيام الدنيا، كما كان في الوقت بين صلاة الفجر وصلاة الظهر أطول مما بين الظهر والعصر، وكما كان ذلك بين صلاتي العشاء الأولى والعشاء الآخرة، فبعضها ألف سنة، وبعضها خمسون ألف سنة.

جواب ثالث: وهو أن يكون اليوم الذي أخبر الله تعالى عنه في السجدة والحج هما من الأيام التي عند الله وأما في سورة سأل سائل فإن المراد به أنه لثقله على الكافرين واستطالتهم له وصعوبته وهوله عليهم يصير كخمسين ألف سنة (٢).

وقال الطبري: وأولى الأقوال عندي بالصواب، قول من قال معنى يدبر الأمر من الساء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم خمسين ألف سنة في النزول وخمسين ألف سنة في الصعود لأن ذلك أظهر معانيه وأشبهها بالتنزيل.

وقال مجاهد وقتادة والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسين ألف سنة، وصعوده في مسيرة خمسين ألف سنة، ولكنه يقطعها في طرفة عين ولهذا قال تعالى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٣) وهذا القول هو الصواب والله أعلم.

بعض المباحث الموضوعية:

الإستواء على العرش:

ذكر الإستواء على العرش في سبع آيات من القرآن وهو حقيقة عند جميع فرق الأمة إلا الجهمية ومن وافقهم؛ فإنهم قالوا: هو مجاز، ثم اختلفوا في مجازة؛ والمشهور عنهم ما حكاه الأشعري عنهم وبدعهم وضللتهم فيه: بمعنى استولى، أي: ملك وقهر. وقالت فرقة منهم: بل معناه قصد وأقبل على خلق العرش.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجمل في مجازاته يحتمل خمسة عشر وجهاً، كلها لا يعلم أيها المراد، إلا أننا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل. وهذا الذي قالوه باطل من وجوه عدة أهمها:

أن لفظ الإستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم وأنزل بها كلامه نوعان مطلق ومقيّد.

(١) كشف المعاني ٢٩٨

(٢) درج التنزيل ٦٤٨-٦٤٩

(٣) ابن كثير ٣٨٣/٦

فالمطلق: ما لم يوصل معناه بجرف مثل قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [سورة القصص]، وهذا معناه: كمل وتم، يقال: استوى النبات، واستوى الطعام. وأما المقيد فثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد بإلى كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة، وقد ذكر سبحانه هذا المعنى إلى في موضعين من كتابه: في البقرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [سورة البقرة]، والثاني في سورة فصلت ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ وهذا معنى العلو والارتفاع بإجماع السلف. والثاني: مقيد بعلى كقوله: ﴿لِنَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [سورة الزخرف]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَقلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۗ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾ [سورة هود] وهذا أيضاً معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو (مع) التي عدي الفعل إلى المفعول معه نحو استوى الماء والخشبة بمعنى: ساواها. وهذه معاني الاستواء المعقولة^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء بما هو نص أو ظاهر في: أن الله سبحانه فوق كل شيء وأنه فوق العرش، فوق السواوات، مستو على عرشه^(٢).

مجموع أيام الخلق:

مجموع أيام خلق السواوات والأرض ستة كما ذكر في سبعة مواضع من القرآن، أربعة منها بلفظ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [سورة الأعراف]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۗ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِندِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [سورة يونس]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ بِإِيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)﴾ [سورة هود]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا ۗ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [سورة الحديد]

وفي موضعين بلفظ: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [سورة الفرقان]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِنْ

(١) مختصر الصواعق ١٢٦/٢

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ٢٨

ذُوْنِهِ مِنْ وِجْهِ وَلَا شَفِيعٌ إِلَّا مَنِ اسْتَدْرَكَ (٤) ﴿سورة السجدة﴾، وفيها زيادة خلق ما بينها. ومثله ما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) ﴿سورة ق﴾، فيحمل ما سكت عنه في الآيات الأربع على ما ذكر بعدها، أي أن السماوات والأرض وما بينها، كل ذلك كان في ستة أيام. قال ابن عباس - رضي الله عنه - (فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السماوات في يومين)^(١).

أنواع الشفاعة:

الشفاعة لا يراد بها معونة الله - سبحانه - في شيء مما شُفِعَ فيه، فهذا ممتنع ولكن يقصد بها أمران هما:

١- إكرام الشافع.

٢- نفع المشفوع له.

والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر. واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها.

مثال دفع المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

وقد قسم أهل العلم رحمهم الله الشفاعة إلى قسمين رئيسيين، هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ، وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله، فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ أُنِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمِّ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعَ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَهَسَّ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يُجْمَعُ النَّاسُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفَعُهُمُ الْبَصْرُ، وَتَدْنُو السَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِأَدَمٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ. وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَتَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَتَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ عَضِبَ الْيَوْمَ عَضْبًا لَمْ يَعْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَعْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَضَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوْحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَتَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَضِبَ الْيَوْمَ عَضْبًا لَمْ يَعْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَعْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمَ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَتَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ عَضِبَ الْيَوْمَ عَضْبًا لَمْ يَعْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَعْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَتَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ عَضِبَ الْيَوْمَ عَضْبًا لَمْ يَعْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَعْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْمَمٍ

وَرُوحٍ مِنْهُ، وَكَلَّمْتُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيئًا اشْفَعْ لَنَا أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عَيْسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ دَبَابًا - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِبْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ مُحَمَّدًا أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ عَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَأَطْلُقْ قَاتِي تَحْتِ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَخَامِيرِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي ثُمَّ يَقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبَّ يَقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِ الْأَيَّمِنِ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَجَمْرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى".

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها. لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها. وفي صحيح مسلم "أنا أول شفيع في الجنة"^(١).

ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٣) [سورة الزمر].

الثالث: شفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب^(٢).

القسم الثاني: الشفاعة العامة له وجميع المؤمنين، وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فحين استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: (ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً؛ إلا شفعمهم الله فيه)^(٣).

النوع الثاني: الشفاعة فحين دخل النار أن يخرج منها.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال صلى الله عليه وسلم في أبي سلمة: (اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره، وتور له فيه، واحلفه في عقبه)^(٤).

الفصل الثالث: إثبات البعث:

﴿وَقَالُوا إِذَا صَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَلَا لَنِي خَلْقِي جَدِيدٌ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

إخبار الله عن المشركين استبعادهم المعاد بعد تمزق أجسامهم وتفرقها في أجزاء الأرض، ثم إثباته قدرته على البعث، وبين أن هذا بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

(١) أخرجه مسلم كتاب الجنة باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم (أنا أول الناس يشفع في الجنة) ١٩٦.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الفضائل باب قصة أبي طالب ٣٦٣/٣، مسلم، كتاب الإيمان باب شفاعته النبي ﷺ لأبي طالب ١٩٤/١

(٣) أخرجه مسلم كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون ٣٨٢.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغاض الميت ٣٧٠.

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/٣٢٩-٣٣٤، شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢١

الإبداع البياني في الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [سورة السجدة] في هذه الآية (استفهام إنكاري) غرضه الاستهزاء والتكذيب، يقول المشركون المستهزئون بدين الله: هل إذا هلكنا وصرنا تراباً، مختلطاً بتراب الأرض، سنرجع إلى الحياة مرة ثانية بعد أن نغيب في جوفها؟ وهو استبعاد للبعث مع السخرية والاستهزاء، ولذا قال تعالى بعده ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أي بل هنالك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء، وهو كفرهم وحمودهم للقاء الله بعد الموت^(١).

[وفائدة الاستفهام الإنكاري: الإنكار ومعنى الاستفهام حينئذ معنى النفي، وما بعده منفي ولعل السر في جمال أسلوب الاستفهام هنا، والعدول إليه عن أسلوب النفي، هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي وهو أفضل من النفي ابتداءً^(٢).

توجيه موهم التعارض في الآية (١١):

١- ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة السجدة]

٢- ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ [سورة الزمر]

٣- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [سورة الأنعام]

٤- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةَ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَهُمُ الْيَوْمَ تُجْرُونَ غَدَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الأنعام]

الجامع للآيات أن الملك الموت أعوانا من الملائكة يعالجون الروح حتى تنتهي إلى الخلقوم فيقبضها هو. فالمراد هنا: قبضه لها عند انتهائها إلى الخلقوم، والمراد بآية الأنعام: هو وأعوانه. وبآية الزمر: الله تعالى وقضاؤه بذلك وقيل المراد بقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ وقوله ﴿يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ أي يستوفي عدد أرواحكم، من قولهم: توفيت الدين إذا استوفيته أجمع.^(٣)

آية (٦١) الأنعام وآية (٩٣) الأنعام: أي: استوفت روحه، وهم ملك الموت وأعوانه^(٤).

وآية السجدة أي ملك الموت

(١) الإبداع البياني في القرآن العظيم ٢٥٣ محمد الصابوني، المكتبة العصرية ط ١٤٢٦

(٢) من بلاغة القرآن ١٢٦، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر ٢٠٠٤

(٣) كشف المعاني ٢٩٩ بدر الدين بن جماعة

(٤) الكشف الزمخشري ٣٣١

آية الزمر: ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة وصنعتة العجيبة فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ أي يقبضها عند حضور أجلها ويخرجها من الأبدان. فهنا الحديث عن قدرة الله وعجيب صنعه فقال ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى﴾ ولم يقل ملك الموت أو أعوانه^(١).

المباحث الموضوعية:

شبهات منكري البعث والرد عليهم:

هناك العديد من الشبهات الواهية لدى منكري البعث؛ ولعل من أهمها أن تفتت العظام وتحلل الجسد إلى ذرات ترابية واختلاط هذه الذرات بعضها ببعض، وضياعتها في الأرض مع ما يطرأ على الأرض من تغيرات بالأمطار وغيرها كل ذلك موضع بعد واستغراب من الكفار.

والجواب عن ذلك:

١- ما ذكره قبل هذه الآية من خلق الإنسان من الطين وتطويره من قطرة ماء إلى أن يصير إنساناً أكبر دليل على أن إعادته ممكنة ليس في ذلك أدنى ريب، فلا يحتاج بعد هذه الأدلة إلى كبير توكيد.

٢- أن الإعادة أسهل من الابتداء في منطق العقل.

٣- علمه المحيط بكل شيء، فإنه يستلزم أن لا يشتبه عليه أي جزء من أحد بأجزاء الآخرين لكمال علمه

وإحاطته بجميع الذرات وما تحلل منها ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴿[سورة سبأ] (٢).

الفصل الرابع: مشهد من مشاهد القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

يذكر الله في هذه الآية حال المشركين يوم القيامة وحالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عزوجل، حقيرين ذليلين، ناكهي رؤوسهم، أي من الحياء والخجل يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة، ويطلبون العودة إلى دار الدنيا للعمل الصالح، ولكن هيات لهم فالיום يوم جزاء وحساب، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له.

الإبداع البياني في الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [سورة السجدة] جواب (لو) حذف للتبويل و تفضيع الأمر، أي لرأيت أمراً محولاً مفرعاً، ترتعد له القلوب، وتطيش من هوله الأحلام.

(١) فتح القدير ٦١١/٤

(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ١١٦، ١١٧، فاضل السامرائي، دار عمار ط١، ١٤٢٧

﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ (١٢) [سورة السجدة] هذا خبر حذف جوابه، والتقدير: لو رأيت حالة المجرمين وهم مطرقوا رؤوسهم أمام ربهم، من شدة الندم والخجل، لرأيت أمراً فظيماً هائلاً، ترتعد له الفرائض، وهذا النوع يسمى (الإيجاز بالحذف) حذف جواب (لو) للتحويل وشدة الأمر^(١).

﴿ **إِنَّا نَسِينَاكُمْ** ﴾: أي سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة^(٢). وحجىء في تصوير حال المجرمين بطريقة حذف جواب (لو) حذفاً يرافده أن تذهب نفس السامع كل مذهب في تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربهم، وبتوجيه الخطاب إلى غير معين لإفادة تناهي حالهم في الظهور حتى لا يختص به مخاطب. والمعنى: لو ترى أيها الرائي لرأيت أمراً عظيماً^(٣).

ويجوز أن يكون خطاباً لرسول الله ﷺ ويراد به التمني كأنه قال "وليتك ترى" كقوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة: لو نظرت إليها. والتمني لرسول الله ﷺ كما كان الترجي له في لعلمهم بهتدون لأنه تجرع منهم الغصص، فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم، وأن تكون لو الإمتناعية، قد حذف جوابها وهو لرأيت أمراً فظيماً أو لرأيت أسوأ حال ترى^(٤).

﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِينَاكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [سورة السجدة]

في هذه الآية ما يسمى بالمشاكاة وهو الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى، فإن النسيان من الله مستحيل لا يتصور ﴿ **قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى** ﴾ (٥٢) [سورة طه]، ﴿ **وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾ (٦٤) [سورة مريم]، وهو غير النسيان من الكفار، لأن النسيان منهم: الترك للأوامر، وعدم الإيمان بلقاء الله، وأما قوله ﴿ **إِنَّا نَسِينَاكُمْ** ﴾ فالمراد منه: تتركهم في العذاب ترك الشيء المنسي، سمي نسياناً من باب المشاكاة^(٥). فقد سمي عقاب الله لهم (نسياناً) لبشاكل نسيان الكفار، زيادة في روعتهم، ومبالغة في تعنيفهم، وأن الجزء سيكون في غاية الشدة، وفيه مجاز مرسل لعلاقة السببية أيضاً^(٦).

توجيه المتشابه اللفظي في الآية (١٢):

- ١- ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (٩٣) [سورة الأنعام]
- ٢- ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ (١٢) [سورة السجدة]

(١) الإبداع البياني في القرآن العظيم، ٢٥٣ محمد الصابوني، المكتبة العصرية ط ١٤٢٦

(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٨/

(٣) التحرير ١٥٤/٢١

(٤) الكشف الزمخشري ٨٤٣

(٥) الإبداع البياني في القرآن العظيم، محمد الصابوني، المكتبة العصرية ط ١٤٢٦

(٦) ٧٩ البديع في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين - دار الفكر ١٤٢٢

٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة سبأ]

- إبدال جملة بجملة:

آية السجدة: يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم وما لهم جميعاً عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله حقيرين وذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والحجل، يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا، أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا ۚ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ بَصَالَىٰ مَبِينٌ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة مريم]، وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار يقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك].^(١)
آية الأنعام: هذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا، لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون.^(٢)

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾: جوابه محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ (في غَمَزَاتِ الْمَوْتِ) شدائده وسكراته، وأصل الغمزة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدّة الغالبة ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح والتشديد في الإرهاق من غير تنفيس وإمحال، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله. وقيل: معناه باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب.^(٣)

بعض المباحث الموضوعية:

السمع:

يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة. والثلاثة في القرآن:

فمن الأول قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ تَحَاوُرِكَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [سورة المجادلة]

وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع لله.

والثاني: سمع الفهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۗ﴾ أي: لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأنفال]، لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففهم أفتان، إحداها: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لتكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُوتُكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ ۗ﴾

والله عليهم بالظالمين ﴿٤٧﴾﴾ [سورة التوبة]، أي قابلون مستجيبون، ومنه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۗ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لَتَوْمَ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفُونَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۗ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِينَا هَذَا فَخَدُّهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتِنَا فَخَدُّرُوا ۗ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٥/٦

(٢) الروح ٩٢

(٣) الكشاف الزمخشري ٣٣٧

لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبَهُمْ لَّهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) [سورة المائدة]، أي قابلون له مستجيبيون لأهله^(١).

وفي مقارنة بين السمع والبصر نذكر كلام ابن تيمية حيث قال: التحقيق أن السمع له مزية، والبصر له مزية: فمزية السمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه، فالسمع أعم وأشمل، والبصر أتم وأكمل، فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه^(٢).

ولتقديم السمع وجوه ذكرت في المنهج الحديث: أن السمع في الإنسان متقدم في الوقوع والوجود، لأن الوليد يكتمل يتميزه بسمعه قبل بصره.

ومنها: أن المسموعات من جميع الجهات، والمرئيات من الجهة المقابلة. ومنها أن الانتفاع بالسمع في مقام الهدايا والنبوات أكثر من الانتفاع بالبصر، وإغلاق السمع عن سماع الهدى أساس كل ضلال وانحراف^(٣).

وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [سورة يونس]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [سورة الروم]، فيه دلالة أخرى أن المرء يعتبر بالسمع أكثر إذ أن لكل واحد الخيار في الرؤية وعدمه، لوجود ما يعلق العين ويفتحها فلا تقع الرؤية من الجميع في نفس الوقت، بل تتعدد الرؤية من الجميع في نفس الوقت، بل تتعدد الرؤية لأن كل واحد يرى في الوقت الذي يختاره، بخلاف السمع فإن الجميع يسمعون ذات الصوت^(٤).

أنواع الهداية:

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۗ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة السجدة] لقد أمرنا الله بالهداية، وحثنا على طلب الهداية في سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) التي نقرأها في كل ركعة من كل صلاة، وبين لنا في سورة النساء أن الصراط المستقيم هو صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين فقال سبحانه: ﴿وَلَهْدَيْتَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٦٨) وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسُدِّدِ اللَّهُ لَهُ السُّبُلَ فَسَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ ۗ وَكُلُّ فَجَّارٍ لَكَ كَاذِبٌ ﴿٦٩﴾ [سورة النساء]

وقد ذكر ابن القيم في شفاء العليل مراتب الهدى فقال - رحمه الله - إن مراتب الهدى أربعة:

- ١- الهدى العام: وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيها وهذا أعم مراتبه.
- ٢- الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده: وهذا خاص بالملكفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة.
- ٣- الهداية المستلزمة للإهداء: وهي هداية التوفيق، ومشية الله لعبده الهداية، وخلقته دواعي الهدى، وإرادته والقدرة يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار. وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهي التي ضل جمال القدرية بإنكارها.

(١) البدائع في علوم القرآن ٣٢١-٣٢٢، ابن قيم الجوزية

(٢) بدائع الفوائد ٣/١٦٤

(٣) المنهج الحديث في تفسير أحسن الحديث ٨٣ - د. عبدالغني الراجحي - ط المعرفة سنة ١٣٨٣-١٩٦٣

(٤) القضاء والقدر - متولي الشعراوي - دار الشروق، ط ١٩٧٥

وهذه المرتبة تستلزم أمرين: أحدهما فعل الرب تعالى وهو الهدى، والثاني فعل العبد وهو الإهداء، وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمُقًا وَصِبْغًا وَصَمًّا مَا وَالَهُمْ حَتْمًا كَمَا حَبَّ زَبَانُهُمْ سَعِيرًا﴾ (سورة الإسراء)، وقال أهل الحنيفة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رَتَّبْنَاهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأعراف).

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم، كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه، كما أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه، وضلال فيه، فالأول ضلال عن معرفته والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها، والعبد محتاج في كل حال ومفتقر للهداية.

وقد أخبر سبحانه أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤَدُّونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة الصف)، ﴿وَتَقَلَّبُ أَعْيُنَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَىٰ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام)، والعلم النافع الذي تحصل به النجاة من النار، ويسعد به العباد، هو الحاصل باتباع الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا قَالُوا يَا بُنَيَّ نَحْنُ نَحْنُ هَدَىٰ فَتَمَّ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة)، ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ قَالُوا يَا بُنَيَّ نَحْنُ نَحْنُ هَدَىٰ فَتَمَّ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (سورة طه)، ولا بد من العمل به، فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به، أو بمجرد العمل والزهد بدون العمل فقد ضل^(١).

الفصل الخامس: حال المؤمنين في الدنيا:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) [سورة السجدة]

المعنى العام:

إن الذي يصدق بحجج الله وآيات كتابه، إنما هم القوم الذي إذا ذكروا بها وعظوا وخروا سجدًا تنذلاً له واستكانة لعظمته، وإقراراً له بالعبودية وسبحوا بحمده وهم لا يستكبرون، وهم كذلك تتنحى جنوبهم عن مضاجعهم التي يضطجعون عليها المناهم، ويقومون يذكرون الله ويصلون له ويدعون خَوْفًا وَطَمَعًا في عفوه عنهم وتفضله عليهم برحمته ومغفرته، وما رزقهم ينفقون في سبيله ويؤدون منه حقوقه التي أوجبها عليهم فيه، فيجمعون بذلك بين فعل القربات اللازمة والمتعدية^(٢).

الإبداع البياني في الآيات:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) [سورة السجدة]

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي بكر ابن القيم - دار التراث ١٤١-١٣٢،

تحقيق الحستاني حسن - الفتاوى ١٣/٢٤٥-٢٤٧

(٢) تفسير الطبري، ٦٢-٦٣ تفسير ابن كثير ٤٢٩/

فيها كناية لطيفة عن ترك النوم والاتقطاع للعبادة والصلاة^(١).
الكناية والاستعارة في سورة السجدة:

الكناية اللطيفة في قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾ [سورة السجدة]، كنى به عن كثرة الصلاة والعبادة، لأن التجافي معناه ترك النوم للتفرغ للصلاة وذكر الله، وهو من الكنايات البديعة^(٢)، وقال ابن قيم: وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة العين في الجنة^(٣).

بعض المباحث الموضوعية:

نعيم الجنة وأكثر أهلها:

إن في الجنة من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فقد قال ﷺ: قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر^(٤).

وان في الجنة لشجر يسير الراكب في ظلها مئة سنة لا يقطعها

فعن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع، مائة عام، ما يقطعها)^(٥)

وكما أنه يحل عليهم رضوان الله فلا يسخط عليهم بعده أبداً

فعن النبي ﷺ أن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون لبيك، ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(٦)

وكما أنهم يرزقون النظر إلى وجهه الكريم ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣)﴾ [سورة القيامة]، ﴿لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ [سورة يونس]

ومن نعيمهم كذلك في الجنة خيام من لؤلؤ، فعن النبي ﷺ قال: (إن للمؤمن في الجنة لحيمة من لؤلؤ واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً)^(٧).

وهم في هذا النعيم على الدوام قال تعالى: ﴿وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا

لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رَتَّبُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

[سورة الأعراف]

وعن النبي ﷺ: "من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه"

(١) الإبداع البياني في القرآن العظيم ٢٥٢، محمد الصابوني، المكتبة العصرية ط ١٤٢٦

(٢) الإبداع البياني في القرآن العظيم ٢٥٤، محمد الصابوني، المكتبة العصرية ط ١٤٢٦

(٣) حادي الأرواح ٢٢٣

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب صفة الجنة ٢٢٨

(٥) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب إن في الجنة شجرة، ١٤٢٩

(٦) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ١٤٢٩.

(٧) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب في صفة خيام الجنة ١٢٣٣

وقال: "ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحموا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهتموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً"^(١)

وأكثر أهل الجنة هم أمة محمد ﷺ فعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة فقال: "أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟" قلنا: نعم. قال: "أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟" قلنا: نعم. قال: "أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟" قلنا: نعم. قال: "والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة؛ وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر"^(٢) وفي حديث آخر قال ﷺ: "يقول الله يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك! قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها.. فاشتد ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول الله، أين ذلك الرجل؟ قال: "أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل"، ثم قال: "والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو الرقة في ذراع الحمار"^(٣)

قيام الليل:

قيام الليل كان من أول ما أمر به نبينا ﷺ حيث قال له سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الْمَلَأَ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) [سورة المزمل] وههنا بين له مقدار ما يقوم ﴿رِضْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ (٣) أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (٤) [سورة المزمل] أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك.^(٤) وقيام الليل من النوافل المطلقة، وهو سنة مؤكدة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. وذكر الله من صفات المتقين، قيام الليل، وبين جزاؤهم، قال تعالى: ﴿لِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَيَبْأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١٨) [سورة الناريات]

وشهد لهم بالإيمان بآياته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حُزُّوا وَسُجِدُوا ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۗ هُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ۗ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [سورة السجدة]

ووصفهم بالعلم، ورفع مكانتهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَابِئُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٩) [سورة الزمر]

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب في دوام نعيم أهل الجنة ١٢٣٢

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر ١١٦٣ حديث ١٣٢

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قوله عز وجل (إن زلزلة الساعة) ١١٦٤ حديث ١٣٣

(٤) تفسير ابن كثير ٣٩٢

وفي آخر الليل ينزل الرب تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟"^(١)

وهي أفضل الصلاة بعد الفريضة قال رسول الله ﷺ: "...وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل"^(٢)

والنبي ﷺ كان حريصاً على قيام الليل، عن عائشة رضي الله عنها "إن نبي الله كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً"^(٣) وهناك أسباب عديدة تعين على قيام الليل منها: معرفة فضله، والحرص على النوم مبكراً، وعدم كثرة الأكل، وسلامة القلب وغيرها.

الفصل السادس: ما أعده الله للمؤمنين والمجرمين في الآخرة:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْثُورِ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

يذكر الله في هذه الآيات ما أعده سبحانه وتعالى للمؤمنين من النعيم الذي تقر به أعينهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وعن النبي ﷺ أنه قال: "سأل موسى ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: أدخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخدانهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب؛ فيقول: لك ذلك ومثله و مثله ومثله و مثله ومثله في الخامسة؛ رضيت رضيت ربي، فيقول: هنا لك وعشرة أمثاله معه، ولك ما اشتيت نفسك ولذت عينك؛ فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم ترى عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: و مصداقه

من كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾^(٤) [سورة السجدة] ثم يخبر سبحانه عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة الله، مكذباً لرسول الله إليه ثم أخبر عن مقر الفريقين في الآخرة، فللمؤمنين جنات المأوى، وللفاسقين النار ثم بين بعد ذلك عظم جرم الفاسقين وظلمهم لأنفسهم حين ذكرهم الله بآياته وبينها لهم ووضحها فأعرضوا عن ذكره، واغترتوا أكبر الغرور بأنفسهم، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ [سورة السجدة]

(١) أخرجه البخاري كتاب التهجيد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ٢٠٠

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب الحث على صلاة وإن قلت ٣١٦

(٣) أخرجه البخاري كتاب تفسير القرآن، باب قوله (ليغفر لك الله ماتت من ذنبك ومات آخر) ٤٤/٦

(٤) رواه مسلم كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ٩٨.

الإبداع البياني:

﴿أَقْمَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كُنَّ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [سورة السجدة]

فُرع بالفاء على ما تقدم من الآيات من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين استفهام بالهمزة مستعمل في إنكار المساواة بين المؤمن والكافر، وهو إنكار بتنزيل السامع منزلة المتعجب عن التون بين جزاء الفريقين في ذلك اليوم فكان الإنكار موجهاً إلى ذلك التعجب في معنى الاستئناف البياني، والكاف للتشبيه في الجزاء.^(١)

﴿وَلَنذِيقِيَنَّهُمْ مِن الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَبَهُمْ يَرْجِفُونَ (٢١)﴾ [سورة السجدة]

قال ابن قيم: (قد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء، لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر: أن له فيه عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا؛ فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال من العذاب الأدنى ولم يقل ولنذيقهم العذاب الأدنى فتأمله.^(٢)

ويقول أبو هلال العسكري: (حقيقته لعذبهم والاستعارة أبلغ، لأن حس الذائق أقوى لإدراك ما يذوقه، وللذوق فضل على غيره من الحواس، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى شيئاً لم يعرفه شمّه، فإن عرفه، والا فذاقه لما يعلم أن للذوق فضلاً في تبين الأشياء).^(٣)

ولقد ورد فعل الذوق في القرآن (٦٣) مرة معظمها في مجال الوعيد، ولم يذكر إلا في نطاق الاستعارة، أي لم يستخدم على وجه الحقيقة إلا في قوله: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاقِمُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلِيمَا مِنْ رَزَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّمَا أَلَمْ أَنهَكَمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)﴾ [سورة الأعراف]، وفي الحديث عن آدم وزوجه، ولم يذكر الذوق في بسط جلال الجنة، والتلذذ بمباهجها وشرابها وطعامها، مما يدل على أنه خصص للكافرين والعاصين والجبارة، وهو يدل على مرتبة هيجية، شأن أهل النار الذي يطعمون من العذاب لثملاً للبطون.

والذوق حاسة دنيا إلى جانب اللمس والشم من حواس الإنسان، أما الحواس العليا فهما السمع والبصر، إلا أن الكلمة تجتسم للبصر معاناتهم للعذاب، وحسية التذوق تبعث على التهويل، فكان حقيقاً بأن تُقرن بعذاب الآخرة، وفيها أقصى المباشرة في التلقي، وقد وردت أيضاً في تذوق الرحمة، كما وردت في تذوق الوبال والبأس والعذاب إذ تبعث في الذهن صورة النار تأكل الأحشاء بعد أن تصل إلى اللسان.^(٤)

توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٠):

١- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ

تَكْذِبُونَ (٢٠)﴾ [سورة السجدة]

٢- ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾ [سورة الحج]

- إبدال بالزيادة والنقص، وكذا إبدال جملة بجملة (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ) (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ):

(١) التحرير ١٤/١٦٣

(٢) حادي الأرواح ٢٢٣

(٣) كتاب الصناعتين/٢٧٥ لأي هلال العسكري

(٤) (١٠٤-١٠٥ جاليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف

بزيادة كلمة ﴿عَمَّ﴾ في آية الحج (٢٢) حيث وصفهم بأن العذاب من جميع الجوانب اكتنفهم، صاروا بإحاطة ذلك بهم، وسد أنفاسهم عليهم بمنزلة البعير المغموم بالغمامة التي تُسَدُّ مَنَفْسَهُ، فلا يجد فرجة، والآية التي في سورة السجدة لم تشتمل من إحاطة العذاب بهم من ذكر الثياب من النار وَصَّتِ اللحمِ وإذابة الشحوم. فأخبر أن النار تشتمل عليهم من جوانبهم كاشتغال الثياب. وقيل: هي ثياب نحاس من نار، وهي النهاية في الإحساء والإحراق، ثم خصص الرؤوس بصب الماء المغلي عليها.

وقيل في التفسير: أنه ينفذ إلى جوانبهم فيقطع ما فيها، ويذوب ما في بطونهم من الشحوم، وينساقط ما عليهم من الجلود.. فلما وصفهم بأن العذاب من جميع الجوانب اكتنفهم وصف ما أحاط بهم، ذكر هذا الغم، أي كلما أرادوا من الكرب الذي يأخذ بكظهم أن يخرجوا من النار التي جلبت عليهم كل ذلك أقبلت الربانية نحوهم بما يدق رؤوسهم والآية التي في سورة السجدة لم تشتمل من إحاطة العذاب من ذكر الثياب من النار، وصب اللحم، وإذابة الشحوم على ما ذكر في هذه الآية، لأنه قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة السجدة] فلما لم يتقدم ذكر ما يطيف بهم ويغهم ويصير كما يسد مخارج أنفاسهم لم يذكر أنهم يحاولون الخروج من أجل الغم الذي اقتضت الآية في الحج ذكره، ولم يقع مثله في سورة السجدة من مقتض، فلم يقع المقتضي كذلك^(١).

تابع توجيهه المتشابه اللفظي في الآية (٢٠):

١- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة السجدة]

٢- ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة سبأ]

٣- ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة الطور]

- إبدال كلمة بكلمة:

(الذي) في سورة السجدة و(التي) في سورة سبأ وسورة الطور

في السجدة (الذي كنتم) و في سبأ: (التي كنتم)

لأن النار وقعت في هذه السورة موقع الكناية لتقدم ذكرها والكنايات لا توصف فوصف العذاب، وفي سبأ والطور لم يتقدم ذكر النار فحسن وصف النار^(٢).

- إبدال بالذکر والحذف:

(عذاب النار) في السجدة وسبأ و(النار) في الطور

ذكر أنهم يكذبون بالنار وبعذابها وقد ورد العذاب مضافاً إليها في السورتين، والعذاب مذكر والنار مؤنث، وعودة الضمير إلى كل من المضافين تحصل المقصود على السواء. إلا أن آية السجدة اقترن بها ما يستدعي أن يناسب التذكير، وهو قوله تعالى:

﴿وَلْتَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ ذُوقِ الْعَذَابِ الْأَكْبَرَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِفُونَ﴾ [سورة السجدة]، فلما تفصل ذكر العذاب إعلاماً يلحق

(١) درة التنزيل ٥٦١-٥٦٢ الإسكافي

(٢) بصائر ٣٧٥/١

ضريبة الأذى والأذى من جرى الوعيد لهم، والعذاب مذكر، وقد تكرر، فتأكد رعيه، فناسب عودة الضمير قبله إلى العذاب المضاف إلى النار مذكراً، ليجري ذلك كله مجرى واحداً، ولما لم يكن يتلو آية سورة سبأ ولا قبلها ما يستدعي ذلك، أعيد الضمير إلى النار مؤنثاً، ليحصل في السورتين ورود الوجهين الجائزين كما تقدم مع التناسب^(١).

أما بالنسبة لسورة الطور ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ مَهَا تَنكَدِبُونَ (١٤)﴾ دون كلمة عذاب فعاد الضمير إلى النار فجاء مؤنثاً، والحديث في السجدة وسبأ حول العذاب فكان تكرر ذكره، بينما الحديث في الطور عن إنكار النار فحذفت كلمة العذاب. والله أعلم

توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٢):

- ١- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ [سورة السجدة]
- ٢- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)﴾ [سورة الكهف]

- إبدال حرف بحرف (ثم - ف) وإبدال جملة بجملة:

في الكهف ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بالفاء و في السجدة ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ و ثم ههنا تدل على أنه ذكر مرات ثم تأخر وأعرض عنها، والفاء تدل على الإعراض عقيب التذكير.

ففي الكهف: الحديث في هذه السورة عن الأحياء من الكفار ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوعًا (٥٦)﴾

وأما في السجدة: فعن الأموات من الكفار بدليل قوله ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾

أي: ذكروا مرة بعد أخرى، وزماناً بعد زمان ثم أعرضوا عنها بالموت فلم يؤمنوا واقطع رجاء إيمانهم^(٢).

وقال الإسكافي: (إن الفاء و ثم مشتركان في أن ما بعدها في اللفظ متأخر عما قبلها في المعنى، ومختلفان في أن (الفاء) قرب ما بعدها مما قبلها، وفي (ثم) تراخ عنه وبعد، فكان استعمال الفاء في سورة الكهف أولى، واستعمال ثم هناك أحق وأحرى، وذلك أن ما في سورة الكهف ذكر قوم يُستدعون إلى الإيمان، ولم تختم أعمالهم بالكفر لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

﴿وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوعًا (٥٦)﴾ [سورة الكهف]

وليس كذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ [سورة السجدة]، في

وصف الكفار بعد موافاتهم القيامة لقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ [سورة السجدة]، أي ذكر مدة عمره بآيات ربه، وتناول الأمر بزجره ووعظه، ثم ختم ذلك بترك القبول بالإعراض، فكان هذا قولاً يقال فيهم عند

(١) ملاك التأويل - أحمد الغرناطي ج ٢/٩٤٥-٩٤٦

(٢) أسرار التكرار للكرماني ١٣٣

الانتقام منهم كما حكى قولهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبِّمَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَازْجَعْنَا نَعْمَلُ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة]، فقد بان بما ذكرنا أن (ثم) هنا مكانها، والفاء هناك مكانها. والله أعلم^(١).

- الخلاصة:

أن إبدال حرف ثم بالفاء وكذا جملة بجملة أخرى في سورتي السجدة والكهف يناسب السياق؛ فسياق سورة السجدة في بيان حال المجرمين الأموات فناسب الإتيان بـثم المتراخية والتي فيها بُعد، وكذا بيان المال وهو الانتقام بينما في الكهف سياقها في الأحياء فناسب الإتيان بالفاء المتراخية والتي فيها قرب، وكذا بيان سبب عدم اهتدائهم وهو عدم استجابتهم لك وذلك لحالمهم وهو أكنة قلوبهم وعدم فقها ووقر آذانهم وبالتالي عدم اهتدائهم في حياتهم.

بعض المباحث الموضوعية:

سبيل المؤمنين والمجرمين:

بين الله في كتابه: سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه هؤلاء، وتوفيقيه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه؛ عرفوا: سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانتم لهم السبيلان، كما يستبين للسالك: الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة^(٢).

ذكر الله سعيدهم وشقيهم. وقسم سعيدهم إلى قسمين: سابقين، ومن سلك صراط الله المستقيم، سلك سبيل المؤمنين فعن

الناس بن سمان عن رسول الله ﷺ قال: " ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيها أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس أدخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحته فإنك إن فتحته تلجه، والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم^(٣).

ولما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَتَقُوا فَمَا وَهُمْ نَارٌ كَلَّمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [سورة السجدة]، فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك. فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت، وكان معذبا به هناك كما كان قلبه معذباً به في الدنيا.

فليس الفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار، وإنما هم يعذبون فيها، وفي البرزخ، وفي القيامة، ولكن سكرة الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم.

(١) درة التنزيل ٥٣٤

(٢) الفوائد ١٠٧

(٣) رواه أحمد ١٨٢/٤، ١٨٣ وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٦٧/١

فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل البود في لحومهم، فالآلام تَأْكُلُ أرواحهم غير أنها لا تفتى، والدود يأكل أجسامهم.^(١)

جزء المعرض عن القرآن:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿سورة طه﴾، المراد بالذكر هنا: القرآن في قول عامة المفسرين، وقد أخبر الله سبحانه أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى، فإن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحياه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة، فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة، بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ، ونسيانه في العذاب بالآخرة وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعْشَ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿سورة الزخرف﴾ والله سبحانه -أخبر أن من أعرض عن ذكره، فإن الله ينتقم منه ويجي حياة ضنك في الدنيا وفي البرزخ شدة وحمد وضيق، وفي الآخرة ينسى في العذاب. وهذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة، ولهم في البرزخ وفي الآخرة أطيب الثواب.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿سورة طه﴾، وهو المراد بتناول إعراضه عن الذكر الذي أنزله، وهو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه، وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه، ونعمه، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، أي: من أعرض عن كتاب الله، ولم يتله، ولم يتدبره، ولم يعمل به، ولا يفهمه، فإن حياته ومعيشته، لا تكون إلا مضيقاً عليه منكدة معذباً فيها.^(٢) ومن أعرض عن الذكر، وعميت عنه بصيرته، أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، مجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب، وقد صور القرآن الإعراض في آيات عديدة بوجوه مختلفة: منها ما ورد في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (٤٥) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٦)، وفي سورة الأنعام ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَاتٍ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٥)، وفي سورة الكهف ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧)

وهجر القرآن أنواع أحدها: هجر ساعه والإيمان به والإصغاء إليه.

الثاني: هجر العمل به والوقوف عند حاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

الثالث: هجر تحكيمه، والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.

الرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

(١) حادي الأرواح ٢٨٣، الروضة ٤٧٣

(٢) الوابل الصيب ٥٩

الخامس: هجر الاستشفاء به، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.^(١)

وهناك طوائف كثيرة أعرضت عن القرآن الكريم ومنها على سبيل الاختصار:

١- الرافضة: وذلك بادعائها أن القرآن ناقص ومحرف، وإن القرآن الكامل مع الغائب الذي سيخرج في آخر الزمان من سرداب سامراء.^(٢)

٢- البابية والبهائية: وذلك بادعائها نسخ القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية بشريعة الباب والبهاء.^(٣)

٣- التيجانية: وذلك بتفضيلها أوراها وأذكارها - كصلاة الفاتح - على القرآن العظيم، فقد قالوا: إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة أفضل من قراءة القرآن ستة آلاف مرة.^(٤)

وفي العالم الإسلامي نشأت أحزاب ومؤسسات - لا دينية - أعرضت وتعمل على أن يُعرض المسلمون عن القرآن الكريم عقيدة وشريعة.^(٥)

الفصل السابع: الإشارة إلى موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً مُبْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أُولَئِكَ يَدْعُهُمْ لَمَّا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ (٢٦)﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب، وهو التوراة كما آتيناك الفرقان يا محمد ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ فلا تكن في شك من لقائه.

سواء بمعنى لقاء موسى ربه، أو لقاء موسى ليلة الإسراء، أو لقاء الأذى كما لقي موسى، أو تلقي موسى كتاب الله بالرضى والقبول، فلا تعارض بينها، فقد لقي نبينا ﷺ موسى عليه السلام ليلة الإسراء كما في البخاري ومسلم، وقد لقي موسى ونبينا عليها الصلاة والسلام الأذى وسيلقيان الله عز وجل، وقد تلقى موسى الكتاب بالرضى والقبول.

وفيما سبق تسليية وتثبيت لنبينا عليه الصلاة والسلام على الحق الذي جاء به، وتقرير أنه الحق الثابت الذي جاء به موسى في كتابه، وفيه كذلك تثبيت له على ما يلقاه هو وصحبه من أذى وشدة، وأنهم إن صبروا وأيقنوا كان ذلك طريق النصر والإمامة والقيادة. كما كان من إنعام الله وتفضله على بني إسرائيل لما كانوا صابرين موقنين أن جعل منهم أمة يهدون إلى الحق ويدعون إلى الخير، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا، سلبوا ذلك المقام، وأمرهم إلى الله يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه من الاعتقادات والأعمال. فهذه الآيات تسليية وتوجيه من خلال الإشارة إلى موسى عليه السلام وقومه.

(١) الفوائد ٨١

(٢) الشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهر ٧٨

(٣) البابية عرض وقد إحسان إلهي ظهر ١٠٤

(٤) التيجانية، علي الدخيل ١١٦ - ١٢٣

(٥) الإيمان بالكتب، محمد الحمد، دار ابن خزيمة، ط ١٤١٤

الإبداع البياني:

لما جرى ذكر إعراض المشركين عن آيات الله وهي آيات القرآن في قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (سورة السجدة)، استطرد إلى تسلية النبي بأن ما لقيه من قومه هو نظير ما لقيه موسى من قوم فرعون الذين أرسل إليهم، فالخبر مستعمل في التسلية بالتنظير والتمثيل. فهذه الجملة وما بعدها إلى قوله ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ معترضة، وموقع التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق هو ما استعمل فيه الخبر من التسلية لا لأصل الأخبار لأنه أمر لا يحتاج إلى التأكيد، و به يظهر جمال الاعتراض بتفريع ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ على الخبر الذي قبله.

وهو اعتراض بالفاء ومثله وارد كثيرا في الكلام كما تقدم عند قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ قَبِيْرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فلا تتبعوا الهوى أن تغدولوا وإن تلوثوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا (سورة النساء)، وبأي هذا عند قوله تعالى ﴿هَذَا فَلْيَذوقوه حَيْمٍ وَعَشَاقٍ﴾ (سورة ص)، والمريّة: الشك والتردد. وحرف الظرفية مجاز في شدة الملازمة؛ أي: لا يكن الشك محيطاً بك ومتمكناً منك، أي لا تكن ممترياً في أنك مثله سينالك ما ناله من قومه^(١).

توجيه لفظي في الآية (٢٣) في كلمة (فلا تكن في مريّة):

- ١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة السجدة]
- ٢- ﴿أَقَمَلْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة هود]
- ٣- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٍ﴾ (١٠٨) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ (١٠٩) [سورة هود]

فأتى بالنون في تكن في سورة السجدة، وقال تعالى في سورة هود ﴿فَلَا تَكُ﴾ وكان حق ذلك أن يذكر هناك بغير نون.

وهذه النون في قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ لما أشبهت بسكونها حروف المد واللين ثم كثرت استجيز حذفها للسببين جميعاً؛ فإن تحركت خرجت عن شبهها، نحو: لم يكن الرجل منطلقاً، [ن] لا يجوز أن تقول: لم يك الرجل منطلقاً. وأما إذا سكنت وتحرك ما بعدها فلك أن تأتي بها ولك أن تحذفها، كما كان في الموضعين ثم إنه يختار فيها الحذف إذا تحرك ما بعدها متى تعلقت بالمثل الكثيرة، ويختار إبتانها إذا تعلقت بالقليلة، لأن الكثرة أحد سببي جواز حذفها، وهذه الكثرة أعني أنها في أم الأفعال التي هي (كان) ويعبر بها عن كل فعل، ألا ترى أنه لا يجوز: لم يه، ولم يعن زيد، في (لم يه) و (لم يعن) وكثرة الجمل هي التي تنقلها تعلقت بها من قبلها أو من بعدها.

فقوله في سورة هود: ﴿أَقَمَلْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة هود]

جاء بعد أن تعلق بآيات ذوات جمل تقدمته وهي: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ نِبْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)﴾ [سورة هود]، ألا ترى؟ فقد تقدمته جمل جاء عقيها متعلقاً بها فتقل من أجلها فاختير تخفيفها بحذف نونها^(١).

توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٥):

- ١- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾ [سورة السجدة]
 - ٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفَصِّلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [سورة الحج]
 - ٣- ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفَصِّلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)﴾ [سورة الممتحنة]
- إبدال كلمة بكلمة (ربك - الله):

- آية السجدة: قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وفي هذا دلالة على مزيد العناية والرعاية الإلهية إذ السياق في تثبيت وتصبير النبي عليه الصلاة والسلام فناسب ذلك ذكر الربوبية .

- آية الممتحنة: بذكر الضمير دون الاسم الظاهر لأن السياق القرآني في الآيات السابقة جميعها بهذا الأسلوب فناسب أن يأتي السياق هنا بالضمير .

- آية الحج: قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ والسياق فيه ذكر لأصناف عديدة بالإضافة للمؤمنين من يهود ونصارى وصابئين ومجوس طوائف مختلفة قد ضلت في جانب توحيد الألوهية والعبودية فناسب ذلك ذكر الألوهية.

فإبدال كلمة بدل كلمة (ربك) (الله) بذكر الرب مضافاً إلى ضمير الخطاب، وقوله في آية الحج ﴿إِنَّ اللَّهَ يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ﴾ بذكر اسمه العلم ذلك والله أعلم أن كلمة (رب) وردت في سورة السجدة أكثر مما وردت في الحج مع أن سورة الحج أطول بكثير من سورة السجدة فقد وردت في السجدة عشر مرات ووردت في الحج ثلاث مرات فقط، وأن كلمة (الله) وردت في الحج أكثر مما في السجدة، فقد وردت في سورة الحج (٧٦) ستاً وسبعين مرة ووردت في السجدة مرة واحدة مناسبة كل لفظة موضعها. كما أن في آية الحج عموم أهل الأديان من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين فذكر اسمه العلم (الله) ولم يقل (ربك) مضافاً إلى ضمير الخطاب لأن أهل ملته من بينهم فذكر اسمه العلم غير مضاف إلى أحد من هؤلاء الأصناف لأنه ينبغي أن يكون القاضي متجرداً ليس له علاقة بأحد المتخاصمين أو المختلفين ولا يتنسب إليه، وأما آية السجدة فليست في نحو ذلك وإنما هي في الفصل بين ملل أخرى ليس بينها ملة الإسلام فلا ضمير أن يكون الذي يفصل هو (ربه)^(٢).

- بالذکر والحذف:

فقال في السجدة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُفَصِّلُ﴾ بذكر (هو) وقال في الحج ﴿إِنَّ اللَّهَ يُفَصِّلُ﴾ من دون (هو) الضمير يفيد التوكيد والتخصيص و(هو) ضمير فصل لتصر الفصل عليه إيماء إلى أن ما يذكر في القرآن من بيان بعض ماختلفوا فيه على أنبياءهم ليس مطموحاً منه أن يرتدعوا عن اختلافهم وإنما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم لأنهم لا يقبلون الحجة فلا يفصل بينهم إلا

(١) درة التنزيل ٦٥٢-٦٥٣

(٢) من أسرار البيان القرآني، فاضل السامرائي، دار الفكر، ط ٢، ٢٠١٠م

يوم القيامة. إذاً هي تفيد التوكيد والتخصيص لإسناد الجملة الفعلية إلى الضمير المتقدم وليس كذلك التعبير في آية الحج، وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك: حيث أنه لما ذكر الاختلاف في آية السجدة فقال ﴿فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ جاء بضمير الفصل أو ضمير المبتدأ وكلاهما يفيد التوكيد والقصر، وذلك لأن الاختلاف ينبغي فيه الفصل، ولم يذكر الاختلاف في آية الحج وإنما ذكر الشهادة على كل شيء، فافتضى توكيد الفعل وقصره في آية السجدة دون آية الحج.

- إبدال بالتقديم والتأخير:

التقديم لتأكيد الحصر ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فقد ينفع الولد والرحم في الدنيا أما في يوم القيامة فلا ينفع المرء إلا ما قدم.
بعض المباحث الموضوعية:

الصبر:

الصبر من أشق الأشياء على النفوس وهو ينقسم إلى قسمين من هذا الباب:
أحدهما: بحسب قوة الداعي إلى الفعل.

الثاني: سهولته على العبد.

فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق، وإن فقدا - معاً - يعني قوة الداعي وسهولته سهل الصبر عنه، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه دون آخر، فمن لا داعي له إلى شرب الخمر وأكل الحشيشية وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه، فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله، ومن أشتد دواعيه إلى ذلك، وسهل عليه فعله، فصبره عنه أشق شيء عليه، ولهذا كان صبر الشباب عن الفاحشة، وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات، ومزلتهم عند الله منزلة عظيمة، لا يصل إليها إلا من صبر مثل صبرهم، وكذلك من صبر على موت أولاده وأبويه وأقاربه وأصحابه ونحوهم، وهو مع ذلك صابر محتسب، يأمر أهله بالصبر، وينهاهم عن لطم الحدود وشق الجيوب، وعن كلام مالا يجوز شرعاً، هذا له من الثواب الجزيل، فالعبد إذا ذاق لذة المعصية، ثم تاب وصبر عنها، كانت توبته توبة صادقة.

والصبر المستمر مع القدرة من غير خوف على جاهه أو ماله أو عرضه، صبر عن المعاصي، ومواظبته على ما أمره الله تعالى به، صبر على الطاعات؛ فإذا فعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى، ثوابه أن يوفى أجره بغير حساب ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ [سورة الزمر]

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة إن النبي ﷺ قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شاله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه" (١)

ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم في ظله، لكمال صبرهم، ومشقتهم على نفوسهم، فصبر الملك على العدل مع قدرته على الظلم والانتقام من رعيته، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة مع قدرته على الرياء، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع جمال الداعي، وصبر المتحابين في الله اجتماعها وانفرادها،

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة ٤١٥.

وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك عن الناس، فهذه الأمور فيها مشقة على النفوس، فالصبر عليها، بتوفيق الله وفضله واحسانه إلى عبده، صبر جميل عظيم^(١).

أهل العلم:

جعل الله سبحانه أهل العلم أمة يهدون بأمره، ويأتم به من بعدهم فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَيَاتِنًا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤) [سورة السجدة]

وقال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُوَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٤) [سورة الفرقان]، أي: أمة يقتدى بنا من بعدنا.

فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ وهي أرفع مراتب الصديقين. واليقين هو كمال العلم وغايته إذ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه، وبصبرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفسي عما يوهن عزمه ويضعف إرادته^(٢).
وبتكامل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين، وهي ولاية آلتها والعلم يختص الله بها من يشاء من عباده. ومن المعلوم أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس، لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحباً لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو الحكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه، فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه كل وقت.

كما أخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١) [سورة المجادلة]

فوائد قصة موسى عليه السلام:

قد ذكر الله لموسى عليه السلام سيرة طويلة، وساق قصصه في مواضع من كتابه بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام.

وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى - عليه السلام - لأنه عاجل فرعون وجنوده، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، وشريعته وكتابه التوراة، وهو مرجع أنبياء بني إسرائيل وعلماهم، وأتباعه أكثر أتباع الأنبياء غير أمة محمد ﷺ وله من القوة العظيمة في إقامة دين الله والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره.

ومن الفوائد المستنبطة من قصة موسى عليه السلام:

١- أن آيات الله وعبره في الأمم السابقة إنما مستفيد منها المؤمنون ﴿تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

(٣) [سورة القصص]

(١) تسليمة أهل المصائب ١٩٠-١٩٢، محمد المنبجي الحنبلي، دار الرشيد، تعليق محمد حسن الحمصي ط ٢، ١٤٠٧.

(٢) مفتاح دار السعادة، ١-٥٠/٨١، أعلام الموقعين ٤/١٣٥.

- ٢- إن الله إذا أراد شيئاً هياً أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة.
- ٣- إن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستولى عليها الكسل عن السعي في حقوقها، ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور. كما استنقذ الله بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون.
- ٤- أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المخاوف، فإنه كما يزداد به إيمانه وثوابه، فإنه يتمكن من القول الصواب، ويبقى رأيه وفكره ثابت، وأما من لم يحصل له هذا الثبات، فإنه لقلقه وروعه يضعف فكره ويذهل عقله.
- ٥- إن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وإن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله، فإن الله قد وعد أم موسى - عليه السلام - أن يردها إليها، ومع ذلك لما ألتقطه آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب.
- ٦- إن قتل الكافر الذي له عهد بعقد لا يجوز، فإن موسى ندم على قتله القبطي واستغفر الله منه.
- ٧- الرحمة والإحسان إلى الخلق، من عرفه العبد ومن لا يعرفه، من أخلاق الأنبياء.
- ٨- الحياء والمكافأة على الإحسان من دأب الصالحين.
- ٩- أن من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إماماً في الشر وداعياً إليه، كما أن من أعظم نعم الله على العبد أن يجعله إماماً في الخير هادياً ممدياً، كما قال تعالى في فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى الثَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) [سورة القصص]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَآتِ الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٧٣) [سورة الأنبياء]
- ١٠- في هذه القصة دلالة على رسالة محمد ﷺ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبراً مفصلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً، قصه قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين. وهو لم يحضر في شيء من تلك المواضع، ولا درس شيئاً عرف به أحوال هذه التفصيلات، ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) [سورة القصص]، ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْعُرِيِّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) [سورة القصص]، ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) [سورة القصص]، وهذا نوع من أنواع براهين رسالته.
- ١١- إن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم وإقامة الدعوة ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) [سورة طه]
- ١٢- إن ذكر العبد لربه هو الذي خلق له العبد وبه صلاحه وفلاحه ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) [سورة طه]، ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخْوَاكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢) [سورة طه]، ﴿يَسْتَبْحَثُ كَثِيرًا﴾ (٣٣) وَتَذَكَّرُ كَثِيرًا﴾ (٣٤) [سورة طه].
- ١٣- إن من كان في طاعة الله مستعيناً بالله، واثقاً بوعده الله، راجياً ثواب الله، فإن الله معه، ومن كان الله معه فلا خوف عليه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافْ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) [سورة طه]، ثم علل بقوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافْ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) [سورة طه]،

١٤- إن أسباب العذاب مختصرة في هذين الوصفين: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه]، أي كذب خبر الله وخبر رسله، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله، ونظيرها قوله: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة الليل].^(١)

الفصل الثامن: الاعتبار بهلاك الأمم السابقة:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ۗ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۗ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

يقول تعالى: أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤهم به من النهج القويم، فلم يبق منهم باقية، ولا عين ولا أثر، وهم يمشون في مساكن هؤلاء المكذبين، فلا يرون فيها أحداً ممن يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، وكأن لم يكونوا ساكنيها أو عامريها، أفلا تتعظ أنفسهم بذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل. ثم بين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إنزاله الماء وإرساله إلى الأرض المحتاجة إليه التي لا نبات فيها وهي مغبرة، فتنبت بإذن الله وفضله.

وهكذا يذكر القرآن جانب الحياة والنماء، بعد ذكر جانب الهلاك والدمار لإيقاظ النفوس، وتنبيه العقول، والاستفادة من أحداث التاريخ، وأسرار الحياة.

الإبداع البياني:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ۗ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [سورة السجدة]

زيادة (من) و في طه (بالفاء) من غير (من) وفي السجدة بالواو وبعده من لأن الفاء للتعقيب والاتصال بالأول فطال الكلام فحسن حذف (من) والواو يدل على الاستئناف وإتيان (من) غير مستقل.^(٢)

وفي تقديم الأتعام على أصحاب الأتعام دلالة على أنه ليس للناس شيء في تقدير الرزق الذي يسوقه الله إليهم وإلى أنعامهم .. وإنما هو من عند الله، وأن الأتعام والناس سواء في الاحتياج إلى الله، وأنهم إنما يرزقون كما ترزق الأتعام.^(٣)

توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٦):

١- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ۗ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [سورة السجدة]

٢- ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّبْيِ﴾ [سورة طه]

- إبدال حرف بحرف (ف - و):

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن السعدي، ١٧٦-١٨٥، المكتبة العصرية، ط ١٤٢٦

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣١٦/١

(٣) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب ١٩-٢٤/٢٢٩-٦٣٠.

- في طه بالفاء من غير (من) وفي السجدة بالواو وبعده (من) لأن الفاء للتعقيب والاتصال بالأول فطال الكلام فحسن حذف (من) والواو يدل على الاستئناف وإثبات (من) غير مستقل^(١).
- إبدال بالحذف والإضافة (من)، وكنا إبدال جملة بجملة (أفلا يسمعون) (أولي النهي):**
- آية طه جاءت بعد ذكر موسى وفرعون، والسامري وهلاكهم، وذكر آدم وحواء، فناسب (قبل) العامة لما تقدم من الزمان، وآية السجدة خالية من ذلك، فأقْب (من) المقرية للزمان^(٢).
- **وقال الإسكافي:** (لما كانت هذه الآية مفتتحة بقوله (أفلم) وتلك مفتتحة بقوله: (أولم) اختلفنا من هذه الجهة، فكان ما دخلته الفاء، لأنه يتعلق بما قبله تغلق الجواب بالمبتدأ، والجزاء بالشرط، فتكون جملة تماماً بجملة قبلها تنقل فيختار لها التخفيف. وما دخلته الواو لا يقتضي ماتقتضيه الفاء بنفسها، بل حقه الانقطاع عما قبله، ولذلك يجوز أن يكون المؤخر بعدها في اللفظ مقدماً في المعنى.
- وأما دخول (من) وحذفها فقد بيناه وهو أن القائل إذا قال ﴿مَّ أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ﴾ فكأنه قال: في الزمن المتقدم على زمانهم، وإذا قال ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فكأنه قال: من مبتدأ الزمان الذي قبل زمانهم، والزمان من أوله إلى آخره ظرف للإهلاك، لا يختص به بعضه دون بعض.
- وقد تقدم آية طه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)﴾ ومعناه: فتركت الاهتداء بها، ثم قررهم على نصبه لهديتهم، واحتج عليهم بتركهم الاهتداء به، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ والتقدير: من تأتت آياتنا فعليه الاهتداء بها، وأتم أتنكم آياتنا فلم توفوها حقها، فهلا فعلتم ما ألزمتكم منها؟ فالذي أوجب الفاء في هذا المكان هذا المعنى، ولم يكن مثله في سورة السجدة من تعلق ما بعد ﴿أَوْلَمْ﴾ بما قبله تعلق هذه الآية بما تقدمه، لأن هناك: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [سورة السجدة]، فلما انفصل جاء بالواو، ولما جاء بالواو ولم يكن من شرطها تركيب جملة مع جملة تكونان كلاماً واحداً فخف، وأدخلت عليه (من) التي حذفت من الآية الأولى ليحدَّ ابتداء الزمان فيكون أبلغ في الاستيعاب^(٣).

بعض المباحث الموضوعية:

إهلاك الأمم بسبب المعاصي:

لا شك أن جميع الأضرار في الدنيا والآخرة تحصل بسبب المعاصي. فما الذي أخرج الأيوين من الجنة، دار اللذة، والنعيم، والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرد ولعن؟ وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟

(١) أسرار التكرار، الكرمانى، ١٤٠، بصائر ٣١٦/١

(٢) كشف المعاني ٣٠٠-بدر الدين بن جماعة

(٣) درة التنزيل ٥٤٦-٥٤٧

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألفتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أمجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟
وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم، وماتوا عن آخرهم؟
وما الذي قلب قري اللوطية فجعل عليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم؟
وما الذي أرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلتظي؟
وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر؟
وما الذي خسف بقارون، وداره وماله، وأهله؟
وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً؟^(١)

ضرب الأمثال:

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.^(٢)

الاعتبار بعقوبات الله للمكذبين:

أخبر الله في كتابه عقوباته للمكذبين، وأنه جعلها عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذاب الآخرة، فلا يكون ذلك عبرة في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية أو قوى إنسانية. وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانفتاح صاحبها بالآيات فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته.^(٣)

الفصل التاسع يوم الفتح:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا لَهُمْ مُنْتَظَرُونَ (٣٠)﴾ [سورة السجدة]

المعنى العام:

أي يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به، استبعاداً وتكديباً وعناداً. ويقولون: متى تنتصر علينا يا محمد كما تزعم؟ ومتى يأتي الوقت الذي ينتقم الله لك منا؟ فمتى يكون هذا؟
فيخبر سبحانه أن ذلك اليوم هو يوم الفتح: أي إذا حل بهم بأس الله وسخطه وغضبه لا ينفع أولئك إيمانهم.
ثم يحتم الله السورة بأمره سبحانه لنبيه بالإعراض عن هؤلاء المشركين، والانتظار وهم منتظرون، والنصر والتأييد على من خالفه، وحين يأتي يوم الفتح والحكم يحل بهم عذابه سبحانه ولا ينفعهم إيمان ولا رجوع.

(١) الجواب الكافي ٨٤-٨٦، لمن سأل عن النبوء الشافي ط ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان

(٢) بدائع الفوائد ٩/٤

(٣) الفوائد ١٣٠

٣- ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْتَفِعُ شَيْئًا

إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [سورة الأنعام]

٤- ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أُتْجِدُلُوتِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۗ

فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف]

٥- ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (٢٠) [سورة يونس]

٦- ﴿ قَهْلَ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ قُلِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (١٠٢) [سورة يونس]

- إبدال بالجمع والإفراد، وإبدال بال حذف والذكر (قل)، وكذا إبدال جملة بجملة:

آية السجدة: المعنى: انتظر هلاكهم فإنهم ينتظرون هلاكك، انتظر النصره من الله فإنهم ينتظرون النصره من آلهتهم، انتظر عذابهم بنفسك فإنهم ينتظرونه بلفظ استهزاء كما قالوا ﴿ فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾^(١) فالسياق في الحديث عن انتظار النبي وانتظار المشركين لذا جاء بلفظ الإفراد.

آية هود: بعد إخبار الله عن أبناء الرسل المتقدمين من قبل رسولنا مع أمهم، وكيف جرى لهم من الخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزيه، فيقول الله أمراً رسوله ﷺ أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به رسوله ﷺ على وجه التهديد ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ (١٢١) [سورة هود]، وقد أنجز الله وعده لنبيه ﷺ ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

آية الأنعام: تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوف يإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقترب الساعة وظهور أشراتها، وذلك كائن يوم القيامة.

آية الأعراف: هذا تهديد من النبي هود عليه السلام لقومه، والأسلوب هنا أسلوب تحدي فناسب أن يكون الجواب مباشرة بدون تقديم كلمة (قل)، والعقوبة قد وجبت عليهم .

آية يونس (٢٠): السياق فيه حديث عن طلب الكفرة المكذبين آيات بشاهدونها حتى يؤمنوا، والله أعلم بالغيب وهو يعلم عاقبة الأمور، فيرد عليهم النبي ﷺ بانتظار حكم الله فيه وفيهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾، وكذا السياق سياق تحدي فذكر (قل).

آية يونس (١٠٢): استهزاء بمعنى التوقيف، وهو وعيد وحض على الإيمان، أي: إذا لجوا في الكفر حل بهم العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سنة الله في الأمم الخالية، فهل عند هؤلاء غير هذا؟ ثم قال ﴿ قُلِ فَانظُرُوا ﴾ محادثة ما، وهي من جملة ما نسخته القتال^(٢)، والسياق كذلك تحدي.

المباحث الموضوعية:

عوامل النصر والعزة:

لقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصرة والتمكين.

(١) تفسير الرازي ١٨٨/٢٥، دار الكتب العلمية، ط ٢

(٢) المحرر الوجيز ٩٢٨.

﴿إِنَّا لَنُنَصِّرُ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (سورة غافر)، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَإِنَّا جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) [سورة الصافات]

من أهم عوامل النصر والعزة:

١- التجرد الكامل لله تعالى.

لكي تتحقق النصر لا بد من التجرد الكامل لله وعدم تعلق النفوس بمغرم مالي أو بجاه أو منصب، بل لا بد أن يكون مراد النفس هو إعلاء كلمة الله سبحانه وفي الحديث أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغرم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " (١)

ولا بد أن يصدق الجوء إلى الله تعالى ويكون رجاؤه به سبحانه. وما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه أموراً:

أحدها: محبة ما يرجوه، الثاني: خوفه من فوته، الثالث: سعيه في تحصيله بحسب إمكانه.

وأما رجاؤه لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى، والرجاء شيء والأمانى شيء آخر. (٢)

٢- قوة الصلة بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ الْأَرْضُ بِبَيْعٍ وَصُلَاةٍ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالْمَعْرُوفِ وَمَهَّوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤١) [سورة الحج]

٣- التوكل على الله حق التوكل.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَقَضَلُوا لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) ﴿إِنَّمَا دَلَّكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥) [سورة آل عمران]

ولا بد من أخذ الأسباب وهو لا ينافي التوكل بل التوكل الحقيقي هو الذي يكون بأخذ الأسباب.

٥- الاعتقاد الراسخ أن العزة بيد الله.

﴿بَيِّنَ الْمُتَافِقِينَ بَأَنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ أَيَتَّبِعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩) [سورة النساء]

٦- فعل الطاعات واجتناب السيئات.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۗ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۗ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ﴾ (١٠) [سورة فاطر]

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٢٧/٦ الفتح

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ٤٤٩/٢-٤٥٠، تحقيق عبدالله التركي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ١٤١٨

الخاتمة

- ١- إن في بيان المتشابه اللفظي للآيات بيان لإعجاز كلام الله رب العالمين.
- ٢- السورة اشتملت على تقرير العقيدة وأنواع التوحيد.
- ٣- السورة اشتملت على الكثير من الآداب والأخلاق والسلوكيات.
- ٤- بيان جوانب عديدة من الإبداع البياني في الآيات.
- ٥- بيان أن كل حرف وكل كلمة أو جملة لها دلالتها العظيمة على إعجاز القرآن، وليس ثمة حرف لا دلالة له .
- ٦- السياق القرآني له أثر ودلالة بالغة في توجيه المتشابه اللفظي للآيات.
- ٧- السورة تكرر فيها التحدي للكفرة والملاحدة من عدة وجوه وصور.
- ٨- السورة اشتملت على الكثير من المباحث الموضوعية رغم أنها ثلاثون آية فقط.
- ٩- تسلية النبي عليه الصلاة والسلام .
- ١٠- أهمية الدراسة التطبيقية للسياق القرآني وأثره في توجيه المتشابه اللفظي واهتمام العلماء بهذا العلم.
- ١١- إن إدراك هذا التشابه وتوجيهه يحتاج إلى تدبر وتأمل وتفكر في معاني القرآن الكريم

المصادر والمراجع

م	اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
١	اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية	شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: بشير محمد عيون	مكتبة دار البيان، الطبعة: الثالثة: ١٤٢١هـ
٢	اقتضاء الصراط المستقيم	ابن تيمية تحقيق محمد الفقي	دار الكتب العلمية ١٤٠٧
٣	الإبداع البياني في القرآن العظيم		المكتبة العصرية، ط: الأولى: ١٤٢٦هـ
٤	الإتقان في علوم القرآن	السيوطي	دار مكتبة الجلال
٥	الإيمان بالكتب	محمد الصابوني	دار ابن خزيمة ، ط: ١٤١٤هـ
٦	الباية	عرض وقد إحسان إلهي ظهير	مكتبة بيت السلام، الرياض، ٢٠٠٢
٧	البدائع في علوم القرآن	شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق: يسري السيد محمد	دار المعرفة، طبعة: ١٤٢٤هـ
٨	البديع في ضوء أساليب القرآن	عبد الفتاح لاشين	دار الفكر ١٤٢٢هـ
٩	البرهان في علوم القرآن	بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم	المكتبة العصرية، صيدا- بيروت
١٠	التبيان في آداب حملة القرآن	السيوطي	مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ
١١	التحرير والتنوير	محمد طاهر عاشور	الدار التونسية للنشر
١٢	التذكار في أفضل الأذكار	محمد القرطبي، تحقيق: فواز زمولي	دار الكتاب العربي، ط: الثانية: ١٤٢٠هـ
١٣	التفسير القرآني للقرآن	عبد الكريم الخطيب	دار الفكر العربي
١٤	التيجانية	علي الدخيل	دار طيبة، الرياض، ١٩٩٤
١٥	الجامع لأحكام القرآن	محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي	دار الحديث، القاهرة
١٦	الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي	شمس الدين ابن قيم الجوزية	دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط: الأولى: ١٤٠٧هـ،
١٧	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	عبد الرحمن جلال الدين السيوطي	دار الفكر: ط: ١٤٠٣هـ

١٨	الروح	شمس الدين ابن قيم الجوزية	مكتبة المنار
١٩	الشيعية والسنة	إحسان إلهي ظهير	إدارة ترحان السنة، باكستان، ١٤٠٥هـ
٢٠	الصحيح المسند من أسباب النزول	مقبل الوادعي	دار ابن حزم، ١٤١٣هـ
٢١	الفتوحات الآلهية الجمل	سليمان عمر الشافعي الشهير بالجل	دار الفكر
٢٢	الفوائد	شمس الدين ابن قيم الجوزية	مكتبة دار البيان
٢٣	القضاء والقدر	متولي الشعراوي	دار الشروق، ط ١، ١٩٧٥م
٢٤	القول المفيد على كتاب التوحيد	شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين	دار ابن الجوزي، ط: الأولى: ١٤٢١هـ
٢٥	الكشاف	الزخشي	شركة مصطفى البايي الحلبي
٢٦	اللسان	محمد بن مكرم بن منظور	ط: دار بيروت، سنة ١٣٨٨هـ
٢٧	المحرر الوجيز	ابن عطية	دار ابن حزم ١٤٢٣هـ
٢٨	المنهج الحديث في تفسير أحسن الحديث	د. عبدالغني الراجحي	ط: المعرفة سنة ١٣٨٣-١٩٦٣
٢٩	الوابل الصيب من الكلم الطيب	شمس الدين ابن قيم الجوزية	المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ
٣٠	الوسيط في تفسير القرآن المجيد	أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي	دار الكتب العلمية، ط: الأولى، ١٤١٥هـ
٣١	إغاثة اللهفان	شمس الدين ابن قيم الجوزية	المكتبة الثقافية- بيروت
٣٢	أسباب النزول	للواحدي، تحقيق: محمد بسويفي زغلول	دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ
٣٣	أسرار التكرار في القرآن	محمود حمزة الكرمانلي	دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ
٣٤	أعلام الموقعين	شمس الدين ابن قيم الجوزية	المكتبة التجارية الكبرى ط ٢، ١٣٧٤هـ
٣٥	بدائع الفوائد	شمس الدين ابن قيم الجوزية	دار الكتاب العربي- بيروت
٣٦	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز	مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد النجار	المكتبة العلمية، بيروت- لبنان
٣٧	تسليية أهل المصائب	محمد المنبجي الحنبلي، تعليق: محمد حسن الحمصي	دار الرشيد، ط: الثانية، ١٤٠٧هـ

٣٨	تفسير القرآن العظيم	لأبي الفداء الحافظ ابن كثير	دار الخير، ط: الأولى: ١٤١٠هـ المكتبة العصرية ١٤٢٧
٣٩	تفسير الكبير	محمد بن عمر الرازي	دار الكتب العلمية، ط: ٢
٤٠	تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن	عبد الرحمن السعدي	المكتبة العصرية، ط: الأولى: ١٤٢٦هـ
٤١	جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)	أبي جعفر محمد بن جرير الطبري	دار المعرفة: ١٤٠٦هـ، بيروت - لبنان
٤٢	جماليات المفردة القرآنية	د. أحمد ياسوف	دار المكتبي، ط: الثانية، ١٤١٩هـ
٤٣	حادي الأرواح	شمس الدين ابن قيم الجوزية	
٤٤	درة التنزيل وغرة التأويل	الحطيب الإسكافي	دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: الأولى ١٣٩٣هـ
٤٥	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني	أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي	دار إحياء التراث العربي، ط: الرابعة: ١٤٠٥هـ
٤٦	شرح العقيدة الطحاوية	تحقيق عبدالله التركي، شعيب الأرنؤوط،	مؤسسة الرسالة ١٤١٨هـ
٤٧	شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل	شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي بكر ابن القيم، تحقيق الحستاني حسن	دار التراث
٤٨	عمدة القاري في شرح صحيح البخاري	محمود ابن أحمد العيني	دار إحياء التراث العربي
٤٩	فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير	محمد بن علي بن محمد الشوكاني	دار المعرفة
٥٠	كتاب الصناعتين	أبي هلال العسكري	دار إحياء الكتب، الطبعة الأولى
٥١	كتاب صحيح البخاري	أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري	المكتبة العصرية
٥٢	كتاب صحيح مسلم	ابن الحجاج بن مسلم	دار السلام ط ١٤١٩هـ
٥٣	كشف المعاني	بدر الدين بن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف	مكتبة دار الوفاء، ١٤١٠هـ

٥٤	لمسات بيانية في نصوص من التنزيل	فاضل السامرائي	دار عمار، ط: الأولى: ١٤٢٧هـ
٥٥	مختصر الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة	شمس الدين ابن قيم الجوزية	دار الندوة الجديدة
٥٦	مدارج السالكين	شمس الدين ابن قيم الجوزية	دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ
٥٧	مشكاة المصابيح	محمد بن عبد الله التبريزي، تحقيق: الألباني	المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ
٥٨	معاني القرآن وإعرابه	الزجاج	عالم الكتب، ١٤٠٨هـ
٥٩	مغني اللبيب عن كتب الأعراب	يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد	المكتبة العصرية، ط: ١٤١٦هـ
٦٠	مفتاح دار السعادة	شمس الدين ابن قيم الجوزية	مكتبة الرياض الحديثة
٦١	ملاك التأويل القاطع بدوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل	أحمد الغرناطي	دار النهضة العربية، ١٤٠٥هـ
٦٢	من أسرار البيان القرآني	فاضل السامرائي	دار الفكر، ط: ٢: ٢٠١٠م
٦٣	من بلاغة القرآن	أحمد أحمد بدوي	نهضة مصر ٢٠٠٤م
٦٤	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي	دار الكتب العلمية، ط: الثانية، ١٤٢٤هـ
٦٥	نوادير الأصول في أحاديث الرسول	محمد بن علي أبو عبد الله الحكيم الترمذي	دار الجيل- بيروت، ١٩٩٢

الفهرس

٢١ ، ١٧ ، ١٦ ، ٩ ، ٤ الإبداع البياني في الآيات:
٣٩ ، ٣٦ ، ٣١ ، ٢٥ الإبداع البياني:
١٢ الإستواء على العرش:
٣٨ الاعتبار بعقوبات الله للمكذبين:
٧ التأدب مع المصحف:
٤٢ الخاتمة
١٩ السمع:
٣٣ الصبر:
٤ الفصل الأول: قضية الوحي وصدق الرسالة
٣٨ الفصل التاسع يوم الفتح:
١٥ الفصل الثالث: إثبات البعث:
٣٦ الفصل الثامن: الاعتبار بهلاك الأمم الساقية:
٩ الفصل الثاني: إثبات الألوهية:
٢١ الفصل الخامس: حال المؤمنين في الدنيا:
١٧ الفصل الرابع: مشهد من مشاهد القيامة:
٣٠ الفصل السابع: الإشارة إلى موسى عليه السلام:
٢٤ الفصل السادس: ما أعد الله للمؤمنين والمجرمين في الآخرة:
٨ القرآن الكريم:
٤٠ ، ١٧ المباحث الموضوعية:
٤٣ المصادر والمراجع
٣٨ ، ٣٦ ، ٣٠ ، ٢٤ ، ٢١ ، ١٧ ، ١٥ ، ٩ ، ٤ المعنى العام:
٢ المُقَدِّمَة
١٤ أنواع الشفاعة:
٢٠ أنواع الهداية:
٣٤ أهل العلم:

!

٣٧ إهلاك الأمم بسبب المعاصي:

ب

٣٧، ٣٣، ٢٨، ٢٢، ١٩، ١٢، ٧ بعض المباحث الموضوعية:

ت

٢٦ تابع توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٠):

تمهيد ٣

٥ توجيه المتشابه اللفظي في الآيات (٢-١):

١٦ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (١١):

٢٥ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٠):

٢٧ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٢):

٣١ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٣):

٣٢ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٥):

٣٦ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٢٦):

٦ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٣):

٣٩ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٣٠):

١١ توجيه المتشابه اللفظي في الآية (٥):

ج

٢٩ جزاء المعرض عن القرآن:

س

٣ سبب التزول

٢٨ سبيل المؤمنين والمؤمنين:

ش

١٧ شبهات منكري البعث والرد عليهم:

ض

٣٨ ضرب الأمثال:

ع

٤٠ عوامل النصر والعزة:

ف

٣ فضائل السورة:

٣٤ فوائد قصة موسى عليه السلام:

ق

٢٣ قيام الليل:

م

١٣ مجموع أيام الخلق:

٤ مقصودها:

ن

٨ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

٢٢ نعم الجنة وأكثر أهلها: